الإمام الجعفري

أضواء على تراثه الأدبي

بقلم

د / محمود عبد الرحيم محمد فراج

مدرس الأدب والنقد بالكلية

إن من أسباب ثراء البحث العلمي ودواعي وصول الباحث به إلى الغاية المرجوة من ورائه ، تعدد جوانب البحث وغزارة مادته ، واتساع آفاقه ولا سيما إذا كان موضوع البحث شخصية علمية أو أدبية ، فحاجة الباحث إلى ما ذكر أشد وأقوى ، والعلم الذي نود الحديث عنه ، قد استوفى عناصر القوة وأسباب التشويق والمتعة ، ذلك هو الإمام العالم الجليل سليل آل بيت النبوة الكرام ، وحافظ علم الأئمة الأعلام ، وحال الصفوة الأصفياء ، العلامة الأزهري الصوفي الشيخ صالح الجعفري داعية الجامع الازهر الشريف .

إن من يوفقه الله تعالى إلى معرفة ذلك البحر الزاخر والغيث الهامع ، يجد صورة مشرقة صادقة للنور الرباني والهدى المحمدي ، الذي أخبرنا به سيد الخلق ﷺ فالعلماء العاملون المتحققون هم أشعة تستمد منه ﷺ أنوار النبوة ، وتغترف من فيض بحر علم الله الذي علمه لحبيبه ومصطفاه ﷺ فالعلماء ورثة الأنبياء .

ونحن إذ نقف أمام الإمام الجعفرى ، أحد الذين ورثوا علم النبوة ، لا يسعنا - وقد أسعدنا بمعرفته - إلا الطواف بالقارىء حول رياض علمه نقتطف من أزاهيرها ونستروح من عطرها ، ونتبين أبرز ملامح شخصيته - رحمه الله تعالى - فنعرف به وبنشأته ، وبمصادر ثقافته ، وتصانيفه العلمية والأدبية ، مع إلقاء الضوء على تراثه الأدبى ، فنقول والله المستعان :

الإمام الجعفرى :

هو الإمام العالم التقى فضيلة الشيخ صالح بن محمد بن صالح بن محمد رفاعى الجعفرى الصادقى الحسينى ، الذى يتصل نسبه العالى بالإمام جعفر الصادق بن سيدنا محمد الباقر بن سيدنا على زين العابدين بن سيدنا الإمام الحسين - رضى الله عنهم أجمعين -

ولد رحمه الله تعالى ببلدة « دنقلا » من السودان الشقيق فى الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة بعد الألف من التاريخ الهجرى - ١٣٢٨ هـ - ، وببلدته دنقلا حفظ القرآن الكريم وأتقنه فى مسجدها العتيق ، ثم وفد إلى مصر ليتلقى العلوم بالأزهر الشريف ، واتصل بأهله المقيمين ببلدة « السلميه » بمركز « الأقصر » من محافظة « قنا »(١) .

وقد ترجم رحمه الله تعالى لنفسه فى مقدمة كتابه « المنتقى النفيس » فقال :

---

(١) أنظر : مقدمة الإلمام النافع لكل قاصد ص ٩ سلسلة تراث الشيخ صالح الجعفرى ط ٣ دار التراث ومقدمة الصلوات الجعفرية فى الصلاة على خير البرية ص ٤ ط ٢ نشر دار جوامع الكلم .

« . . . صالح بن محمد بن صالح الجعفرى الصادق الحسينى ، من بلدة الأقصر بصعيد مصر ، من القبيلة التى هى من الجعافرة ، وتسمى « العلوية » وهم مفرقون بين الأقصر والحلة والحليلة والدير . . . . وفى السلمية يوجد قبر جد والدى محمد رفاعى بمقبرة جد الجعافرة الشريف السيد الأمير حمد حيث إنه كان يقيم هناك ، وللجعافرة نسب كثيرة محفوظة قديمه ، ومن أشهرهم فى إظهار تلك النسب أخيراً : الشريف السيد اسماعيل النقشبندى وتلميذه الشيخ السيد موسى المرعيابى ، ولا تزال ذرياتهم تحتفظ بتلك النسب كثيرة الفروع المباركة »[١] .

فنشأة الإمام الجعفرى نشأة مباركة ، حيث نشأ فى تلك الأسرة الكريمة ذات النسب الشريف ، والتى اشتهرت بالعلم والتقوى والصلاح والتصوف ومدارسة القرآن الكريم ، فقد أسس جده الشيخ صالح محمد رفاعى زاوية لتحفيظ القرآن الكريم تخرج على يديه منها كثير من الحفاظ[٢] .

وقد أخذ الإمام الجعفرى طريقة سيدى أحمد بن إدريس رحمه الله تعالى - عن سيدى محمد الشريف رحمه الله - وفى ذلك يقول : « وقد أجازنى بهذا الطريق الإدريسى شيخى وأستاذى مربى المريدين الشريف السيد محمد عبد العالى عن والده سيدى عبد العالى عن شيخه العلامة السيد محمد بن على السنوسى عن شيخه العارف بالله السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنهم »[٣] .

---

(١) مقدمة المنتقى النفيس فى مناقب قطب دائرة التقديس ص ٢ الشيخ الجليل صالح صالح الجعفرى ط ٣ سنة ١٩٧٥ م

(٢) مقدمة الصلوات الجعفرية ص ٤

(٣) المنتقى النفيس ص ٢٠٧

وفد الشيخ صالح إلى الأزهر الشريف سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بعد الألف من التاريخ الميلادى لتلقى العلم ، وذلك بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم وحفظ بعض المتون من القراءات والفقه وجملة من الأحاديث النبوية (١) .

وكان حضوره إلى مصر للالتحاق بالأزهر الشريف بإشارة من شيخه سيدى عبد العالى - رحمه الله تعالى - وفى هذا يقول : « قبل مجيئى إلى الأزهر جاء أحد أهل البلد بأول جزء من شرح النووى على صحيح مسلم ، فاستعرته منه وصرت أذاكر فيه ، فرأيت سيدى عبد العالى الإدريسى - رضى الله عنه - جالساً على كرسى وبجواره زاد للسفر ، وسمعت من يقول : إن السيد يريد السفر إلى مصر إلى الأزهر ، فجئت وسلمت عليه وقبلت يده ، فقال لى مع حدة « العلم يؤخذ من صدور الرجال لا من الكتب » وكررها ، فاستيقظت من منامى وقد ألهمنى ربى السفر إلى الأزهر ، وحضرت الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى المحدث ، وهو يدرس شرح النووى على صحيح مسلم ، فجلست عنده وسمعته يقرأ حديث « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإن استنفرتم فانفروا (٢) » .

وظل الإمام الجعفرى - رحمه الله تعالى - يجلس فى مجالس العلم بالأزهر الشريف ويترصد حلقات العلماء المخلصين الذين جمعوا بين علمى الشريعة والحقيقة من أمثال الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى السالف الذكر ، والشيخ محمد بخيت المطيعى والشيخ حبيب الله الشنقيطى والشيخ يوسف الدجوى والشيخ على الشنائب وغيرهم .

---

(١) مقدمة الصلوات الجعفرية ص ٥ .

(٢) فتح وفيض وفضل من الله ص ١١ و ١٢ للإمام الجعفرى . ط ١ سنة ١٩٧١ م .

وقد التحق بالدروس العلمية المنتظمة فى الجامع الأزهر لتكون بابه الواسع إلى الهداية والإرشاد ، وثابر وجاهد حتى نال شهادة العالمية الأهلية ، وأخذ شهادة مماثلة من كلية الشريعة الإسلامية . ثم عين بعد ذلك إماما ومدرسا بالجامع الأزهر الشريف ، فاتخذ من رواق المغاربة مقراً له ، حيث تفرغ للعلم والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، واشتهر رحمه الله - بدرس الجمعة - بالأزهر الشريف ، حيث كان الناس يحرصون على حضور درسه ، ويتبركون بذلك لما فيه من الانوار والأسرار والعلوم والمعارف الدينية والعربية (١) .

فقد أفاض الله على لسانه من روائع المعانى ونفائس الحكم ما يشهد بأن مدداً روحيا يتدفق على لسانه مرتفعا من زواجر قلبه المتلاطمة يقول الدكتور البيومى وقد سمعه ذات يوم يفسر قول الله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب (٢) » .

« وكم للشيخ فى ساحات درسه من وثبات وجدانية لاندرى من أين جاءت فقد قرأنا ما يقرأ الناس من كتب التفسير وصحائف الحديث ولكننا لم نر هذا الشرح المتدفق النابض لأحد من سابقيه فى هذه الآية الكبرى ، وقد رزق الشيخ حلاوة فى الصوت تجعل سامعه يتخيل أنه أمام موسيقى تصدح لا أمام إنسان يتكلم ، والصوت الندى إذا استلهم القلب العاطفى المتقد ، جاء ببدع من فنون البيان يبحث عن تأثيرها أساتذة فن الإلقاء فلا يهتدون إلى أصولها

---

(١) أنظر مقدمة الإلهام النافع لكل قاصد ص ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٤ .

الحقيقية ذات الولوج الناشب فى مطاوى الافئدة ولفائف الاحشاء والكبود[١]».

نعم فقد كانت حلقة درسه جامعة إسلامية ومدرسة صوفية أشبه ما تكون بالرياضة النفسية الروحية ، يخاطب فيها العقول ويجيب على الخواطر فى موعظة حسنة وحكمة بالغة ، فقد وهب ـ رحمه الله ـ إلى جانب حلاوه الصوت روعة فى البيان وفصاحة فى اللسان ، جذبت إليه كل فئات الناس ، إذ كان رحمه الله موسوعة أجوبة لكل الأسئلة والاستفسارات ، كما كانت له حضرة صوفيه عذبة المنهل كل ليلة اثنين وجمعة يؤمها جمع غفير من الأحباب والمريدين ، يذكرون الله تعالى ويمدحون رسوله ﷺ وآل بيته الطيبين الطاهرين بالمدائح التى جرى بها لسان الشيخ رحمه الله[٢] .

أما الحديث عن حياته الزاهدة فحقيقة يعرفها كل من اتصل به من أحبابه ومريديه ، وقد عبر عن تلك الحياة أحد مريديه ، وهو الأستاذ أحمد الأسوانى حين قال عنه فى جريدة الأهرام الصادرة فى يوم ١٩٧٩/٤/٢٨ م « عاش الشيخ حياته كلها فى غرفة خشبية ضيقة برواق المغاربة بالأزهر الشريف ، إذ قضى به خمسين عاماً من عمره الذى لم يكمل السبعين ، فكان يحرص رغم مكانته العلمية على مشاركة خدم الجامع الشريف فى أعمال النظافة ويحيا حياة البساطة والشظف فلا يزيد طعامه المعتاد على قطعة من الجبن وكسرة من الخبز[٣] » .

ويقول د/ البيومى عن الشيخ الإمام : « كان للشيخ أتباع من كبار

---

(١) من مقال الدكتور محمد رجب البيومى فى مجلة الازهر بعنوان الشيخ صالح الجعفرى داعية الجامع الازهر الشريف ص ١٨٧١ عدد شوال سنة ١٣٩٩ هـ سبتمبر سنة ١٩٧٩ م .

(٢) أنظر مقدمة للصلوات الجعفرية ص ٦،٧ .

(٣) جريدة الاهرام الصادرة بتاريخ ١٩٧٩/٤/٢٧ م .

الموسرين يعرضون عليه الإقامة فى الشقق الفاخرة، ويرون فى تنوع مجرى حياته وسيلة إلى استبقاء صحته، ولكنه كان يتخذ من هذا العرض الودود سبباً إلى موعظة حسنة فى الدرس، إذ يشرح حياة الرسول ﷺ وقد راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم، ثم ينتقل إلى سير الصحابة الأعلام فيفيض فى زهد عمر وعلى ويقرأ فى صوت خاشع وفى تمثيل مؤثر حى نابض قول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : « يا دنيا غرى غيرى، ألى تعرضت؟ أم إلىّ تشوقت؟ هيهات هيهات، قد بائنتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وأثرك حقير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق ».

وكانت أتباعه من عشرات المسلمين فى شتى ممالك الإسلام يرسلون إليه الهدايا الصوفية الثمينة فى كل موسم، فكان يدفع بها إلى أحد معارفه من كبار التجار بالقاهرة ويطلب منه أن يشتريها بثمنها الحقيقى وأن يستبدل به أقمشة متواضعة . . . ويعله عن عدد الأمتار، فإذا تم ذلك أخذ الشيخ يستعرض المحتاجين من رواد درسه وعشاق موعظته، ليعطى كلا منهم كوبوناً مبوراً باسمه، وبه مبلغ من الأمتار يحدده الشيخ وفق ما يتلقاه من إجابة مريده الفقير عن عدد أسرته وصفتهم من الأنوثة والذكورة، ثم يبعث به إلى صديقه التاجر ليأخذ ما يحتاج من الرصيد المدخر، وقد جاءه مال وفير فدفعه إلى أحد مريديه من المقاولين ليقوم بتعمير بعض المساجد المتهدمة فى هذا الحى الإسلامى من قاهرة المعز، ووجه الشيخ يفيض بالنور ويتلألأ بالبشر حين يجيئه صديقه المقاول فيخبره أن البناء قد تم على أحسن نظام، فيسرع مع أتباعه إلى مشاهدة المسجد فرحا مستبشرا وكأنه يستعرض قصراً ملكيا أهدى إليه، ثم ينهض إلى أداء تحية المسجد، وخلفه صفوف من مريديه، فإذا تمت الصلاة بدأت الموعظة وإذا انتهت الموعظة بدأ الذكر وإذا انتهى الذكر بدأ الشيخ يقرأ السيرة النبوية بصوته الطروب، فإذا قلت لك إن المغرب يتصل بالعشاء، وإن العشاء يشارف السحر، والناس مع الشيخ فى تواجد حنان وفى طرب مياد

وفى أنس لا انقطاع لبهجته فاعلم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

نعم كان الناس مع الشيخ فى تواجد وانجذاب، فقد أوسع لهم من نفسه ما لم يجدوه لدى سواه. (١).

هذا كلام الدكتور البيومى، وهو كلام حسن وجيه، يشهد له حال الشيخ فى قوله وهو يصور حال شيخه ابن ادريس، الذى كان يقتفى أثره ويسير على طريقه ونهجه.

دروس العلم ديدنه يوالى ... فراءتها وليس له فتور
يقول حياتنا ذكر وعلم ... وقرآن له للحفظ سور
وإن طويقنا ما كان نهجاً ... لشيخ طريقنا وبه المسير(٢)

وقد سجل الإمام الجعفرى فى إحدى قصائده منهجه الذى سار عليه فى حياته حيث يقول من قصيدة له مطلعها:

رأيت الحوت فى بحر يعيش ... له بالموت فى براتى
وفى تركى لذكر الله موتى ... فترك الذكر موت ابترى
وفى ذكر للمهيمن يا أخانا ... حياة الروح تحياها حى
رأيت الكون أوهاماً سراباً ... فلم أعبأ به وأنا صبى
طلبت العلم فى صغرى لربى ... فسرت به فأدركنى النبى
سقانى من شراب القوم شربا ... شمائله لها عطر شذى
وكملنى وعلمنى علوماً ... فواخانى الطريق الأحمدى(٣)

هكذا كانت حياة الإمام الجعفرى، جامعة بين العلم والتصوف والذكر والدعوة إلى الله تعالى على هدى وبصيرة من ربه، والعمل على نفع المسلمين.

---

(١) من مقال د/ البيومى فى مجلة الازهر شوال ١٣٩٩ ص ١٨٧١ وما بعدها.
(٢) ديوان الإمام الجعفرى ج ٢ ص ٢٩٧، ٢٩٨، ط - ١ - ١٩٧٩
(٣) هذه القصيدة فى آخر الصلوات الجعفرية ص ١٩٤٧، ١٤٨

وكان لهذه الحياة التي عاشها أثرها الواضح في نتاجه العلمي والأدبي المتنوع إذ ترك لنا تراثا علميا وأدبياحافلا يشتى أنواع المعرفة ، فقد كتب في التفسير والحديث والسيرة النبوية ، كما كتب في علم التوحيد والتصوف وغير ذلك .

وهذه العلوم التي كتب فيها الإمام الجعفري تراها مبثوثة في ثنايا كتبه إذ غالباً ما نجد المؤلف الواحد يحمل في طياته مسائل شتى من العلوم والمعارف الدينية والعربية .

فالناظر مثلا في كتاب الشيخ المسمى بـ « فتح وفيض وفضل من الله في شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله » يرى أن الكتاب يحوى مسائل متنوعة منها : بعد الحديث عن فضل كلمة التوحيد - مبحث هام في القرآن الكريم والأمور التي ينبغي للمريد الصادق أن يحتفظ بها في طريقه - بعض معجزاته - صلى الله عليه وسلم - تفسير لقولة تعالى : « وقد خلقكم أطواراً » وغيرها من الآيات وباب في فضل زيارة النبي - صلى الله عليه وسلم - باب الشعر في المسجد - فصل في الدفن في قبر واحد من ضرورة - فصل في قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... » تبرك الصحابة بمواضع صلاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وغير هذا .

وقد أشار الإمام الجعفري إلى ذلك في ختام كتابه السالف الذكر ، فقال « فيقول العبد الفقير صالح بن محمد بن صالح الجعفري ، قد تم بحمد الله تعالى تأليف هذا الكتاب بالجامع الأزهر الشريف ، وإني أوصي القارىء أن يقرأ الفهرست أولا ليستدل على ما في الكتاب من مسائل شتى أردت بها وجه الله تعالى . . . وقد اجتهدت على أن أذكر الأحاديث النبوية التي فيها المسائل ، وأذكر أسماء الكتب والحفاظ ، ليرجع القارىء إلى المصادر ... »[٢].

---

(١) فتح وفيض وفضل من الله للشيخ الجعفري ص ٢١٩

ولعل تنوع المسائل فى مؤلفات الإمام الجعفرى ، راجع إلى تأثر الشيخ بقراءاته الواسعة فى كتب السابقين ، وحب السير على منهجهم ، فالناظر فى فى التراث الإسلامى والعربى ، يرى أن كثيراً من العلماء ، لم يقتصروا على موضوع واحد فى مؤلفاتهم ، بل كانوا يعرجون على كثير من المسائل ، ولذا كثر فى مؤلفاتهم ما يسمى بالأمالى مثلا : من مثل : الأمالى للقالى ، والأمالى للسهيلى الأندلسى ، وأمالى ابن حاجب الفقيه المالكى .

هذا إلى جانب مافى ذلك من دفع السآمة والملل ، لأن تنوع المسائل ينقل القارىء من مسألة إلى أخرى فلا يشعر بملل أو إعياء .

وأحسب أن تنوع المسائل ، نتاج تجربة عايشها الشيخ من خلال إلقائه الدروس العلمية بالأزهر الشريف ، والتى كانت تضم كثيراً من طبقات المجتمع علماء وغيرهم والشيخ يريد أن يعم النفع الجميع .

ولنا بعد هذا أن نذكر أبرز الكتب التى ألفها ، والتى قام بالتعليق عليها حتى تعم الفائدة . فمن الكتب التى قام بتأليفها :

١ ـ الإلهام النافع لكل قاصد على رسالة القواعد للسيد أحمد بن إدريس .

٢ ـ الذخيرة المعجلة للأرواح المعطلة .

٣ ـ رساله فى الحج والعمرة وزيارة النبى ﷺ .

٤ ـ السيرة النبوية المحمدية المسماة بالأقمار النورانية .

٥ ـ الصلوات الجعفرية فى الصلاة على خير البرية .

٦ ـ فتح وفيض وفضل من الله فى شرح كلمة ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ

٧ ـ كتاب أسرار الصيام للخواص والعوام فى الكلام على قول الله تعالى

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

٨ ـ المعانى الرقيقة على الدرر الدقيقة المستخرجة من بحر الحقيقة وهو شرح على الدرر الدقيقة للسيد أحمد بن إدريس .

٩ ـ مفاتح كنوز السموات والأرض المخزونة .

١٠ ـ منبر الأزهر يترجم عن نعمة الله على آل جعفر .

١١ ـ المنتقى النفيس فى مناقب قطب دائرة التقديس السيد أحمد بن إدريس .

١٢ ـ مفيدة العوام فى علم التوحيد « نظم شعرى » .

١٣ ـ نظم الآجرومية فى علم النحو .

وأما الكتب التى قام بتحقيقها والتعليق عليها .

١ ـ أعطار أزهار أغصان حظيرة التقديس فى كرامات العالم المحدث والفقيه المفسر السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ لمؤلفه الشيخ ابراهيم الرشيد .

٢ ـ رسالة الكشف والبيان عن فضائل ليلة النصف من شعبان للعالم العلامة المحدث الحافظ الشيخ سالم السنهورى .

٣ ـ شرح الصدور بإذن اللطيف الخبير للسيد أحمد بن إدريس .

٤ ـ شهد مشاهدة الأرواح النفيسة للسيد ابن إدريس .

٥ ـ الفيوضات الربانية للسيد ابن إدريس .

٦ ـ كيمياء اليقين فى مشوق المتقين .

٧ ـ لوامع البروق النورانية .

٨ ـ نصر الله بالإلهامات العلية .

٩ ـ النفحات الكبرى وهذه كلها للسيد أحمد بن إدريس .

أضواء على التراث الأدبي للإمام الجعفري :

من خلال ماقدمنا يمكن القول بأن الشيخ الجعفري عاش حياته محباً لله تعالى : ممتثلا أمره ، مجتنباً نهيه ، متفرغاً لطاعته وعبادته ونفع خلقه ، محباً لسيدنا رسول ﷺ بإتباع سنته ولزوم طريقته ، والمحبة القلبية لذاته ـ صلوات الله وسلامه عليه ، كما كان محباً لأهل البيت الكرام ـ رضي الله عنهم ـ بالسير على نهجهم ، وزيارتهم في روضاتهم وتوقيرهم ومحبتهم ، وقد ترجم ـ رحمه الله تعالى ـ عن هذا الحب بالقول كما ترجم عنه بالفعل ، ومن يطالع تراثه الأدبي المتنوع بين الشعر والنثر يجد تلك الحقيقة أمامه ظاهرة جلية . فإذا نظرنا إلى شعره وجدنا قلم الشيخ فياضاً سائلا في الثناء على الله تعالى بما هو أهله من صفات الكمال ، ومناجاة الذات العلية بما أفيض على الشيخ في أساليب التضرع والابتهال .

وهذا واضح في قصائده التي ترقى بألفاظها إلى أعلى مراتب الشعر العربي وتنفذ بمعانيها إلى القلوب والأرواح ، فتصل بالقارىء المتعين إلى يقظة قلبيه روحية تدفعه إلى السعي قدما في طريق الله على هدى من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

كما ترجم قلمه ـ رحمه الله ـ عن حب الذات المحمدية بمدائحه الرائعة الشيقة التي تثني على رسول الله ﷺ بما هو أهل له من الكمال البشري وتشيد بمناقبه ومآثره ومعجزاته ، وتدعوا إلى توقيره ﷺ ومحبته وزيارة روضته والصلاة عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما ترجم عن حبه لأهل البيت

الأطهار ، بالقصائد البليغة التي تعدد مناقبهم وتدعو إلى توقيرهم ومحبتهم وزيارتهم في روضاتهم صلة لجدهم ﷺ (١)

وقد جمع - رحمه الله تعالى - بعض قصائده في كتاب سماه ، لآلئ البحار في مدح النبي المختار ، ﷺ ، وقال في تقديمه له : « يقول ناظم هذه المدائح ورد في القرآن الكريم مدحه ﷺ في كثير من الآيات وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أنه كان يضع المنبر لحسان بن ثابت ... وأنه سمع القصيدة المشهورة من كعب بن زهير وأهدى إليه بردته ، وسمع من الصحابة مدحه - ﷺ - وقد مدحه كثير من السلف والخلف بقصائد احتوت المجموعة النبهانية على قليل منها .

ومن حسن ظني فيه ﷺ تطفلت على هذا القدر العظيم بمدائح أسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم (٢) .. » .

كما حص - رحمه الله تعالى - بعض القصائد بمزيد من العناية فقام بطبعها والتنويه بشأنها وتقديمها للمريدين والمحبين ، ومن ذلك القصيدة التي سماها « البردة الحسنية الحسينية في مدح آل خير البرية » وعدة أبياتها مائتان وبيت من بحر البسيط ومطلعها :

أمن تذكر أهل البيت والحرم ... بكيت دمعاً على الخدين كالديم

أم حنت الروح للأحباب طالبة ... أهل الكمال لكي تحظى بقربهم (٣)

---

(١) راجع مقدمة الديوان ج ١ ص د

(٢) مقدمة لآلئ البحار في مدح النبي المختار صلى الله عليه وسلم للشيخ صالح الجعفري .

(٣) البردة الحسنية الحسينية ص ٢ ط أوبار ١٩٢٤ م .

ومن ذلك القصيدة التي سماها « روضة القلوب والارواح في مدح آل بيت النبي صفوة الفتاح » وعدد أبياتها ثمان ومائتان من بحر الوافر ومطلعها :

رضينا يا بني الزهرا رضينا بحب فيكم يرضى نبينا

رضينا بالنبي لنا إماماً وأنتم آله وبكم رضينا[1]

وفي تقديمها يقول ـ رحمه الله تعالى ـ : « قد من الله علي بهذه القصيدة التي هي في مدح آل بيت النبوة ـ رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم ـ وبدأت نظمها عند السيدة زينب ـ رضي الله تعالى عنها ـ ولما تم طبعها رأيتها في المنام وقد أعطتني ورقا وقالت لي خذ هذا تصريح الحج ، والحمد لله فقد فتح الله علي باب الحج ، أسأله القبول أن يوفقني إلى ما يحبه ويرضاه[2] » .

وقبل أن ينتقل الشيخ إلى جوار ربه ، أوصى بترتيب قصائد ديوانه وفقا لحروف الهجاء التي ختمت بها قوافيها ، فاشتمل ديوانه على مجموعات عدة تبدأ بالقصائد الهمزية ، وتنتهي بالقصائد اليائية وقد طبع من ديوانه ـ رحمه الله ـ ستة أجزاء ، بدأت بحرف الهمزة وانتهت إلى حرف الهاء ، وبقية القصائد لا تزال مخطوطة ، وستطبع قريبا إن شاء الله .

---

(١) روضة القلوب والارواح ص ١ طبع مطبعة أوبار ط ٢ سنة ١٩٧٨ م

(٢) مقدمة روضة القلوب والارواح .

وقصائد الإمام الجعفرى فى مجموعها - مطبوعة ومخطوطة - تعد ثروة علمية وأدبية جامعة بين الإفاده والتأثير ، إذ أن غايتها تتمثل فى الرقى بالمشاعر والسمو بالوجدان والعمل على تعميق القيم الأخلاقية والمبادىء الإسلامية فى نفوس المؤمنين ، فهى نظم شعرى بديع جاء فى صورة واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض ، وأسلوبها هو الأسلوب السهل الممتنع الذى يظن الجاهل أن له القدرة على مثله ، فإذا ما أراده عجز عنه .

وهذه أبرز الموضوعات التى تناولتها القصائد نجملها فيما يلى :

١ - قصائد تتعلق بالذات العلية ، فى الثناء على الله بكل كمال يليق بذاته المقدسة ، وفى مناجاته سبحانه وتعالى ، ففى الثناء نراه .

يقول مثلا :

جليل له العلياء جل جلاله ... له الملك والخلق الذى جل عن حصر
ويدرى بهم حقاً على أى حالة ... ويسرع بالألطاف تكشف للعسر
تسبحه الأملاك والأرض والسماء ... وتعرفة حقاً وتفشيه للشكر
جبال وأشجار وحوش وأنجم ... تسبحه الأملاك فى لجج البحر[1]

وفى المناجاة نرى مثل قوله :

إلى الله أشكو بل إلى الله أضرع ... لعلمى بأن الله يدرى ويسمع
وفوضت أمرى للمهيمن داعيا ... على بابه أشكو وأبكى وأتضرع
وناديت رب العرش جل جلاله ... بأسمائه الحسنى يمن وينفع

---

(١) الديوان الامام الجعفرى جـ ٣ صـ ٢٣٩ .

وحاشا أرى ذلا ولقد دعوتنى أناديه يا الله أدعو وأضرع
ولست أرى شرأ وأنت ثعينى عليك اعتمادى أنت بالعون تسرع (١)

٢ - قصائد تتعلق بالذات المحمدية ، وتشيد بمناقبه ومآثره ومعجزاته وتدعو إلى توقيره - ﷺ - ومحبته وزيارة روضته والإكثار فى الصلاة عليه ﷺ - وهى كثيرة ومتعددة ومنها قوله رحمه تعالى :

يا خير من وطىء الثرى وتشرفت بقدومه الدنيا وأجلى الظلم
يا مهبط الوحى الذى فيه الهدى فيه هديت وكنت أعدل منكم
ومكارم الأخلاق فيك سجية ولك الوفاء كذا السخاء مع الكرم
يا مصطفى من قبل نشأة آدم نبئت من قبل العوالم والقلم (٢)

ومن هذا القبيل قوله - رحمه الله :

بنى كريم له روضة أضاءت بنور يزيد انتشاراً
ومن كفه الماء حقاً جرى نميراً وعذباً يسيل انهماراً
فأروى لجيش عظيم له أذاق الجيش العدو والدمارا
سجود البعير ونطق الحصى وظبى ينادى فنال انتصاراً
حنين الجذع له آية سمعنا بهذا فزدنا اعتباراً

فهذه القصيدة التى بين أيدينا مثلا بلغت عدة أبياتها إلى نيف وتسعين

---

(١) الديوان للامام الجعفرى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) الديوان ج ٥ ص ٧٦٤ .

بيتاً فى مدح النبى ﷺ - مع ذكر بعض معجزاته - صلوات الله وسلامه عليه - والتعبير عن الحب والحنين والهيام بالمحبوب ﷺ وأحاسيسه ونفسه والذى برز فى مثل قوله :

فيا واقفاً عند باب الهدى ... تعجل بفتح أرى الشوق ناراً
لعلى أسير إلى أحمد ... وأحمد ربى وأثنى ابتداراً
لعلى لعلى أرى منيتى ... أطير إليه كمثل الحبارى [1]

٣ - قصائد فى مدح أهل البيت الأطهار رضى الله عنهم وهى أيضاً كثيرة ومتعددة ومنها قوله رضه الله :

أنتم شعاع لشمس المصطفى وبه ... سدتم على الناس من حاف ومنتعل
وكنتم آيه فى الكون بينة ... تهدى إليه لذى غفل بلا عقل
يا رحمة فى بقاع الأرض يصحبها ... نور وأمن لذى عسرى وذى زجل
دعاؤكم بلسم تشفى الصدور به ... يفوق أدوية الأسقام كالعسل
وقولكم سادتى مسك يفوح به ... يهدى العقول لهدى واضح السبل [2]

وهذه القصيدة قد وصلت عدة أبياتها إلى نيف وثلاثين بيتا فى الثناء على أهل البيت رضى الله عنهم - والحث على زيارتهم فى روضاتهم مع ذكر بعض صفاتهم

---

(١) أنظر هذه القصيدة فى الديوان حـ ٣ من صـ ٣٦٥ إلى صـ ٣٧٣ .

(٢) الديوان حـ ٤ صـ ٦٩٠ .

٤ ـ قصائد فى الثناء على شيوخه الكرام ـ رضى الله عنهم ـ ومن ذلك هذه القصيدة التى بدأها بالثناء على شيخه السيد أحمد بن إدريس ـ رضى الله عنه ـ ومنها قوله :

يا أيها القمر السارى بدورات ... بلغ سلامى لشمس فى الإضاءات
للسيد السند ابن إدريس احمدنا ... شيخ الشيوخ وغوث فى البريات
شيخ الطريق له علم جواهره ... تغنى الفقير وتهدى للمبرات
علم الكتاب وعلم الفقه ينثره ... موضحاً بحديث فى العبارات[1]

وقد وصلت عدة أبيات هذه القصيدة التى يثنى فيها على شيخه السيد ابن إدريس ويذكر بعض وصاياه ، إلى نيف وتسعين بيتاً فى أسلوب غاية فى السهولة والإيضاح .

٥ ـ قصائد فى التوجيه والإرشاد ، تشتمل على عظات بليغة وتحث على طاعة الله تعالى ، والتحلى بآداب الإسلام السامية ومبادئه الرشيدة وهى كثيرة يمكن إجمالها فيما يلى :

ا ـ فى الدعوة إلى الزهد والتقوى والورع ، ومن ذلك قوله رحمه الله :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... فاجعل هواها الذى لك يشفع
لو أعطيت كنزاً لقالت ثانيا ... وإذا ترد إلى قليل تقنع
إن القناعة مثل ثوب ساتر ... لا ستر يبقى إن فؤادك يطمع

• • •

---

(١) الديوان ج ١ ص ١٣٦ .

والناس فى الدنيا تراهم إخوة ... وقلوبهم شتى وإن قد أجمعوا
فإذا أردت رضاءهم فعليك أن ... ترضى الإله فإنه لك أسرع
إن أنت أرضيت الإله رأيته ... ملأ القلوب كذا إليه المرجع
إن القلوب لدى مقلبها الذى ... خلق القلوب كذا إليه المرجع [1]

(ب) فى الدعوة إلى تلاوة القرآن وحفظه والعمل به .

ومن ذلك قوله - رحمه الله - :

إن شئت طرد وساوس الشيطان ... فالزم أخى تلاوة القرآن
فهو الشفاء لمن أراد شفاءه ... وهو السبيل لجنة الرضوان
قول المهيمن ذو علوم أدهشت ... يروى الذى يأتيه بالعرفان
نور ينور للفؤاد بذكره ... فيه الهدى الوارد الظمآن
فاسرع أخى إلى تلاوة آية ... تنبيك عن حكم بكل بيان [2]

(ج) فى الحث على الصبر ومن ذلك قوله :

إنما الدنيا كبحر زاخر ... فلكها الصبر نجاة من غرق
إنما العقل كغصن أخضر ... سقيه الصبر وتحسين الخلق
قل لذى صبر لقد نلت المنى ... وقلوق قد تردى بالقلق
منه حلم كلما كان بدا ... حلم نفس الصبر يبدو كالفلق
كل من تلقاه ذا نار فلا ... تطفىء النار بنار تحترق

---

(١) الديوان ج ٣ ٤٩٤ ، ٤٩٥

(٢) » ج ٣ ص ٦٣ ، ١٠٠

واجعل الصبر رفيقا دائمـــا تلقى سلما وسلاما لا قلق (١)

(د) فى الحث على ذكر الله تعالى ومن ذلك قوله رحمه الله :

يا من يريد شفاء القلب من علل فاذكر ففى الذكر منجاة من الزلل
ومجلس الذكر فيه الخير أجمعه الله فيه مع الأملاك والرسل
الرتع فيه كذا الجنات مغدقة والوجد أجلى رجالا فيه بالمقل
الله يذكرهم بين الملائك فى أعلى السماوات ذكراً خالى المثل
الله يفتح أبواب السماء لمن داموا على الذكر فى الإبكار والأصل (٢)

ويقول رضى الله عنه :

المسك فاح لمن بالليل قد ذكروا والنور لاح كمثل البدر والشعل
والروح بالشوق كادت أن تطير إلى عوالم القدس لولا فسحة الأجل
والروح تهتز من آثار جذبته لولا العناية دك الجسم كالجبل
ومن تجلى عليهم لا شبيه له كل الخلائق من علياه فى وجل (٣)

ومن قصائده رحمه الله تعالى ما قيل فى بيان فضل الأئمة الأربعة رضى الله عنهم .

ومن ذلك قوله رحمه الله :

ولمالك فضل كبحر ذاخر جمع العلوم وسائر الأخبار
للشـــافعى مكارم أكرم به نشر العلوم بسائر الأقطار

---

(١) الديوان جـ ٤ ص ٤٣٢ .
(٢ و ٣) الديوان جـ ٥ ص ٧١٧، ٧٩ .

أبو حنيفة ذو اجتهاد واسع وعن الغوامض كاشف الأستار
ولأحمد فضل تورع دائماً جمع الحديث بمسند مدرار
يارب فاوض عليهم عدد الألى قرأوا لفقههم مدى الأعصار
عصروا العلوم تشرفت أعصارهم ببدائع الأحكام بالمعيار(١)

ومن قصائده ما قيل فى نظم العلوم كالتوحيد والنحو والتصوف ففى التوحيد نرى مثل قوله :

قد أوجب الله على الإنسان معرفة المهيمن الديان
فواجب معرفة لما يجب فى حقه والمستحيل فاجتنب
وما يجوز إن عرفت فألزم ومثل ذا لرسله فحتم
فواجب فى حقه تعالى كل كمال قد أتى إجمالا
ويستحيل ضده عليه من المصير راجع إليه

وعدة أبيات هذه المنظومة كما يقول ناظمها رحمه الله :

أبياتها خمسون مع ثمانية من فضل رب نظمها أتى ليه(٢)

وأما منظومته فى التصوف فتبلغ عدة أبياتها ثلاثة وخمسين بيتاً ومنها قوله :

يصحب شيخ العلم والكتاب ليهتدى به إلى الصواب

---

(١) الديوان الجعفرى جـ ٢ صـ ٣١١، ٣١٣

(٢) هذه المنظومة مطبوعة فى كتاب الشيخ « فتح وفيض وفضل من الله صـ ٦٠ وما بعدها.

فليس بعد علم من هداية ... وعمـــل به هو الولاية
فاسمع مقاله وكن سريعاً ... لعمل به وكن مطيعاً
فالشيخ أنت إن أطلعت الأمرا ... وكنت محبوباً لديه سراً
ومدد الشيخ بقدر الحب ... كذاك قربه بقدر القرب(٣)

وأما منظومته فى علم النحو ، فنها قوله فى باب الـكلام وأقسامه :

إن الـكلام عند أهل النحو ... لاربع مذكورة قد يحوى
لفظ وتركيب إفادة وقل ... وضع كعبد الله جاءنا يدل
أقسامه ثلاثة ستذكر ... اسم وفعل ثم حرف يسطر(٤)

وهكذا تعددت موضوعات الشعر عند الإمام الجعفرى وتنوعت ولـكنها فى مجموعها تبين الغاية التى أرادها الشيخ من قوله له وإنشائه إياه .

لقد أنشأ الإمام الجعفرى شعره ووجهه ليكون أسلوباً من أساليب الدعوة إلى الله بالمعـروف والنهى عن المنـكر وتوجيـه النـــاس إلى الخير والبر .

وكثيراً ما كان - رحمه الله تعالى - يتخذ من المناسبات الدينية المختلفة مجالا لتوجيه الناس بعظاته وقصائده التى يمدح بها الرسول - ﷺ - وآل بيته ، ويعلن عن روعة الإسلام وعظمته فى مبادئه وتعاليمه ومناسكه ، ومن ثم حمل شعره لواء هذه الدعوة إلى الله - كما أراد - لأن الذى لا شك فيه أن

---

(١) الالمام النافع لـكل قاصد ص ٦٥ - ٦٧
(٢) نظم الآجرومية فى علم اللغة العربية ص ٢

الشعر قادر على استثارة النفس واستنهاض الهمم ، إذ طبيعته مخاطبة العاطفة وإيقاظ الوجدان وتهيئة النفس لتقبل ما يلقى إليها من نصح وارشاد .

والناظر لهذه الصور التى عرضناها من النتاج الشعرى للامام الجعفرى يرى أنها غنية عن التعليق عليها أو شرحها لوضوحها ، فأساليبها طبيعية فطرية تميل إلى اللين ، وعذوبة الألفاظ، وسهولة العرض ، وقد سلمت من الحوشية وصبغت بالصبغة الإسلامية ، لأن المعانى دينية توجيهية ، وقد استعان الإمام بأسلوب القرآن الكريم وتشبيهاته ، ولطيف كناياته ، وضرب أمثاله ، كما اقتبس الالفاظ من الكتاب والسنة وشعائر الدين ، وقد غلب على شعره الرقة واللين والدماثة واللطف وسهولة المأخذ ، وواقعيه الصورة . وأكثر ما نرى ذلك فى مدائحه للنبى ﷺ وآل بيته الكرام وذكر محاسنهم وتعداد مناقبهم ومآثرهم ، ولعل السر فى هذا هو من أجل أن يسهل ترددها على ألسنة أحبابه ومريديه ، فتجيش نفوسهم بحب الرسول ﷺ وآل بيته ، إلى جانب أنه أراد منها غاية أساسية وهى التعليم والتوجيه ، فهى نظم على جاء فى قوالب شعرية بديعة جامعة بين الإفادة والتأثير ، ولا يخفى علينا ما يتسم به ذلك الشعر من عاطفة جياشة ، وانفعال قلبى صادق ، وإيمان عميق ، لأن شعر الإمام الجعفرى ترجمة عن خلجات نفسه ، وشفافية روحه ، وصدق عاطفته .

والأديب المتأثر المعتقد صدق ما يقول تلتهب كلماته ، وتستقر فى القلوب عباراته ، لأنها قبس من نفسه المشتعلة ، وصورة من عاطفته المنفعلة وسرعان ما تتصل أرواح السامعين بروحه تستمد منها وتتحد منها وتتحد معها وتتجاوب وتتجه إلى الطريق التى يشقها الأديب ويريدها فلا يكاد ينطق بالجملة

حتى تكون أسماعهم وقلوبهم قد وعتها[١]، وما ذلك إلا لأن عاطفة الدين الصادقة التي هي من أنبل العواطف الإنسانية، كانت هي المسيطرة لأنها تسمو بعظمتها على كل متاع الحياة فلا يستخفها المتاع الفاني[٢].

وإذا أردنا أن ندلل على صدق ما ذكرنا فإننا نرى التأثر بالقرآن الكريم يتجلى في مثل قوله - رحمه الله - :

ماذا أقول ومدح الله يخجلني ... في هل أتى قد أتى بالنص يقدرهم
آيات ربي بإخلاص لهم شهدت ... أنهم في جنات الخلد في نعم
لم تأت عندهم شمس شرابهم ... من سلسبيل فوا شوقي لمشربهم[٣]

ويتجلى التأثر بالحديث الشريف في مثل قوله وهو يمدح السيدة فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - :

وكان المصطفى يحنو عليها ... حنو مودة عطفا وليتا
وجاء حديثه يتلى جهاراً ... لقد سادت نساء العالمينا[٤]

وقوله في مدح سيدنا الحسن - رضي الله عنه :

أيا حسن المكارم نلت فضلا ... وإخلاصا وإرشاداً مبينا

---

(١) انظر فن الخطابة د / أحمد الحوفي ص ٢٩ طبع مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٤٩ م .

(٢) راجع شعر الدعوة الإسلامية أطه عبد الفتاح مقلد ص ٢٧ طبع مؤسسة دار التعاون .

(٣) الديوان الجعفري ج ٥ ص ٧٤١ .

(٤) ج ٦ ص ٩٧٨ من الديوان الجعفري .

شهيد والشهادة خير ربح ومن سموك صاروا فادينا
وسيدك النبي وقال ابني سيصلح بين جيش المؤمنينا(١)

ويتجلى وضوح الصورة وواقعيتها فى مثل قوله وهو يمدح النبى ـ صلى الله عليه وسلم :

ونورك للقلوب له ضياء وغيثك هاتن وبه روينا
وكفاك السحاب يغار لما يجود برحمة للمعوزينا
فلو أحد أتاك وكان تبرا لما أبقيته يوما يقينا(٢)

كما يتجلى صدق العاطفة فى مثل قوله ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يتطلع لزيارة المصطفى ـ ﷺ التى كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها .

يا نظرة من رسول الله تأخذنى إلى الحبيب مع الأحباب فى شغل
يا نظرة من رسول الله باسمة تروح القلب من إمداده الهطل
يا نظرة من رسول الله تغمرنى بالنور والسر فى الابكار والأصل(٣)

وإذا نظرنا إلى ذلك النتاج الشعرى من وجهة نظر ثانية فإننا نرى أن الامام الجعفرى قد نسج فى مدائحه وقصائده على منوال الأولين ، وسار سيرة المحبين المقربين ، الذين حفظ التاريخ كثيراً من أشعارهم من أمثال عبد الرحيم البرعى ، وعبد الغنى النابلسى ، وعمر بن الفارض الملقب بسلطان العاشقين ،

---

(١) الديوان الجعفرى جـ ٦ ص ٩٢١

(٢) الديوان جـ ٦ ص ٩٢١

(٣) الديوان جـ ٥ ص ٦٢٣

والامام البوصيرى الذى كان له لديه منزلة عظيمة ، حتى إنه عارض بردته ببردته الحسنية الحسينية التى يقول منها :

الطاهرون وأهل الله من شهدت	لقدرهم سورة الأحزاب يا العظم
الله طهرهم من كل حادثة	هم شمس دين فلم تدرك ولم ترم
هم الكرام فلا تنسى كرامتهم	أيامهم أشرقت من حسن فعلهم
أنباء فاطمة الزهراء كم سعدت	بحبهم أسم أعظم بحبهم
فالدر من حسن جاءت محاسنه	ومن حسين ضياء البرق فى الظلم[1]

وإذا قلنا إن الامام الجعفرى قد حاكى الامام البوصيرى فى بردته فإن الذى نلاحظه هو أن الامام الجعفرى تفرد باستفاضته فى الثناء على أهل البيت ، والحديث عن مناقبهم ، وإبراز الصفات التى اتصفوا بها مشيراً إلى ما ورد فى حقهم من كتاب الله - عز وجل - أو حديث رسوله - ﷺ - فى صورة واضحة جلية ، كما هو بين من الأبيات المذكورة .

فالقصيدة فيض من الفيوضات الربانية التى يختص الله بها من يشاء فى عبادة المقربين ، وهى كغيرها من قصائده - رحمه الله - لها حال دعا إليها ، ولها مقام وردت فيه .

وكثيراً ما كان - رحمه الله تعالى - يرتجل قصائد المديح فتأتى على أروع صورة وأتم بيان .

وكما عارض الامام الجعفرى بردة الامام البوصيرى أو حاكاها ، فإنه

---

(١) الديوان الجعفرى جـ ٥ ص ٨٤٠ ، ٨٤١

كذلك قام بتشطير بعض قصائد ابن الفارض ومن بينها هذه القصيدة التى يقول منها ابن الفارض :

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا ... وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة ... فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى
يا قلب أنت وعدتنى فى حبهم ... صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به ... صبا فحقق أن تموت وتعذرا(١)

يقول الامام الجعفرى فى تشطيره لهذه الأبيات :

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا ... وافتح فؤادى بالعلوم ليعمرا
وأدم فؤادى بالشهود منوراً ... وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة ... فى جنة الفردوس فى دار القرى
أو قلت أشهدنى النبى كرامة ... فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى
يا قلب أنت وعدتنى فى حبهم ... حقق لوعدك كى نكون الأنورا
إن طال بعدك فاللقاء كوعدهم ... صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به ... موت الشهيد فدمع عينك قد جرى
أو بالغرام لدى الحبيب بقربه ... صبا فحقق أن تموت وتقبرا(٢)

ولا تفوتنا الاشارة إلى ما كان عليه شيخنا - رحمه الله تعالى - من معرفة

---

(١) ديوان ابن الفارض ص ١٠٥ ، ١٠٦ طبع مطبعة محمد عاطف وسيد عطه وشركاهم .

(٢) ديوان الإمام الجعفرى ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٤

ينقد الشعره إذ كان ينقد الشعر بحسه الديني ، فقد سمع ذات مرة من الدكتور البيومي بيتين من شعر أبي تمام الأول منهما في الحنين وهو :

وأنجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد[1]

والبيت الثاني هو :

وما ضرم البرحاء أني شكوت فما شكوت إلى رحيم[2]

فلما سمع البيت الأول صاح وأخذ يردده بصوته المغرد ويبكي ويقول هذا نفس عال ، هذا نفس عال لإعجابه به ، ولكنه رفض البيت الثاني بحسه الديني وقال : « إن الرحيم جل جلاله حي موجود ، والشكوى له وحده واجبة ومفروضة فكيف يزل الشاعر في قوله ، وهو كما يقول الدكتور / البيومي « نقد لا يصدر مثله إلا من مثله »[3].

أضواء على تراثه النثري

أما من يستعرض التراث الأدبي المنثور للإمام الجعفري ، فإنه يرى أنه متعدد الجوانب أيضاً ، إذ منه الخطب التي كان يقوم بها الشيخ الإمام في الجامع الأزهر الشريف ، ومنه الوصايا التي كان يقدمها لأحبابه ومريديه ، ومنه الصلوات الجعفرية في الصلاة على خير البرية - صلى الله عليه وسلم - التي هي

---

(١) ديوان أبي تمام بن الخطيب التبريزي ت محمد عبده عزام المجلد ٢ طبع دار المعارف الطبعة الثانية ص ١١٠

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٦٠

(٣) أنظر مقال الدكتور / البيومي بمجلة الازهر ص ١٨٧٦

من أوراد مريديه ومنه الحكم الجعفرية المبثوثة فى ثنايا كتبه - رحمه الله تعالى - .

أما خطبه - رحمه الله - فإننا نرى صورة منها فى كتابه الذى يسمى بـ « منبر الأزهر يترجم عن نعمة الله على آل جعفر » لأن ما فى الكتاب لا يعطى الصورة الكاملة لخطب الشيخ الإمام ، خاصة وأن الكتاب طبع بعد وفاته - رحمه الله - ويبدو أن أحد مريديه جمع ما أمكن جمعه من تلك الخطب التى منها ما بقى تاماً كاملا ، ومنها ما ضاع بعضه ولما تم له ذلك وضع الخطب على الصورة التى وجدها عليها والخطب فى مجموعها تدور حول الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، إذ منها ما هو فى العقيدة الإسلامية ومنها ما هو مع الرسول - ﷺ - السيرة والقدوة ومنها ما كان فى فرائض الإسلام ومنها ما هو فى الحث على التقوى ، ومنها ما هو فى الإنابة إلى الله .

ومن النماذج الكاملة لخطابته ، خطبته فى « البعث بعد الموت » ، والتى يقول منها بعد الحمد والثناء ، أما بعد : فيقول الله - تبارك وتعالى : « والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » عباد الله : اهتم القرآن كثيراً بالبعث يوم القيامة ، وأقام أدلة كثيرة على ذلك منها ما هو ظاهر ، ومنها ما هو بالعقل ، فمن الظاهر قوله تعالى فى شأن النخلة من أنها نبتت من نواة دفنت النواة وسقيت بالماء فخرجت النخلة كاملة فقال سبحانه « كذلك الخروج » أى خروجكم من المقابر يوم القيامة كذلك مثلما أنبتت النواة نخلة كاملة ، كذلك يبقى فى الإنسان عجب الذنب وهى العظمة الأخيرة فى سلسلة الظهر قال - ﷺ - « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب » ، يجمع الله هذه العظام الصغيرة ثم تدفن ، وينزل يوم القيامة مطر من السماء ، فتعود هذه العظام كما كانت أول مرة أجساداً كاملة .

فهذا دليل نظرى واقع حاصل ، ضرب الله به المثل ودلنا عليه ، فمن كان منكم فى شك من البعث يوم القيامة أو كان مستبعداً أن يعيده الذى خلقه أول مرة ، فلينظر إلى النواة كيف عادت بها نخلة كاملة ...»(١) .

وهكذا أخذ الشيخ يبين ما يبين فى تلك الخطبة التى بلغت نحواً من ماتى سطر .

فالخطبة فى عمومها تتحدث عن البعث بعد الموت ووجوب الإيمان به ، وترد على منكرى البعث ، وعلى من يزعم أن النفخ فى الصور الوارد فى قوله تعالى : « يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً » نفخ مجازى ، وتبين أن النفخ فى الصور نفخ حقيقى ، وتوجب علينا عدم التكلم فى القرآن بعقولنا ثم تتحدث عن حكمة البعث وأنها حكمة عجيبة ، والخطبة فى كل هذا تستشهد بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وتستمد منهما لأنهما ينبوعا الهداية والإرشاد وهى تجرى فى أسلوب واضح سهل ، وفى نسق بيانى رفيع .

ومن خلال مطالعاتنا لخطب الإمام الجعفرى الكاملة يتضح أن خطابته كانت كغيرها من الخطب الدينية ، من حيث البدء بالحمد والثناء والشهادتين والانجاه إلى الموضوع ، ثم الختام بما يفيد الانتهاء هذا إلى جانب أنها كانت بين الايجاز والإطناب فليست بالطويلة ولا بالقصيرة بل هى بين بين لأن الطول فى خطب الجمعة خلاف الأولى عند الامام مالك وكان الشيخ مالكياً .

أما وصاياه لمريديه فهى مبثوثة فى ثنايا كتبه ، إذ كان كثيراً ما يوصى مريديه بالسير على الطريق القويم طريق الله .

---

(١) منبر الازهر يترجم عن نعمة الله على آل جعفر ص ٢٥ وما بعدها للشيخ صالح الجعفرى .

ومن هذه الوصايا قوله - رحمه الله - يا أخانا فى الله تعالى تجمعنا الطاعة وتفرق بيننا المعصية ، فعليك بطاعة الله تعالى والحذر الحذر من معصية الله تعالى ، وعليك بطلب العلم فإنه نعم المطية الموصلة إلى المقصود ، وعليك بالإكثار من ذكر الله تعالى فإنه نعم الورد المورود ، وعليك بتلاوة القرآن فإنه كلام ربك ، وشفاء قلبك ، واعلم أن طريقنا هذا مبنى على الكتاب والسنة وفقه المذاهب الأربعة وعقيدة الأشعرى فى التوحيد وأبى القاسم الجنيد فى التصوف رضى الله عنهم أجمعين . (١) »

وبين أن الوصية جرت فى نسق واضح سهل حيث المعانى الواضحة والألفاظ التى تعبر عنها دون تكلف أو افتعال ، ولا غرو فهى توجيهات حكيمة تعبر عن موهبة أدبية أصيلة ، لصدورها عن شيخ عالم متحقق ، ذاق فعرف .

أما الصلوات الجعفرية فى الصلاة على خير البرية والتى ضمها مؤلف الشيخ الذى يسمى بـ « الكواكب الدرية فى الصلاة على خير البرية » فإنها تسير حسب ترتيب حروف الهجاء ، ومجموع هذه الصلوات فى ذلك المصنف تزيد على أربعمائة صلاة وهى فى الغالب تسير على النحو التالى :

(١) الصلاة الخالصة على النبى - ﷺ - مثل قوله رحمه الله . اللهم صلى على سيدنا محمد بعدد النخيل الباسقات والحب والنبات ، والأنهر الجاريات ، والأمواج المتلاطمات والأعين الناظرات ، والسفن الجاريات ، والكلمات الطيبات والأنفاس واللحظات ، وبعدد الماضيات من الحركات

---

(١) مفاتيح كنوز السموات والارض المخزونة للامام الجعفرى ص ١٢ ط ٣ سنة ١٩٧٧ مطبعة السعادة .

والأنبياء وعدد سكان السعير والجنات[١] .

(٢) الصلاة على النبي - ﷺ - مع ذكر بعض صفاته - صلوات الله وسلامه عليه - من مثل قوله : « اللهم صل على سيدنا محمد الذي رفعت ذكره عندك فلا ذكر أرفع منه ، ورفعت لواءه يوم القيامة فجميع الأنبياء تحت لوائه ، وأعطيته السيادة فهو سيد ولد آدم أجمعين ، اللهم صل عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين[٢] » .

(٣) الصلاة المقرونة بذكر بعض معجزاته - صلوات الله وسلامه عليه - ومن ذلك قوله : « اللهم صل على سيدنا محمد الذي خاطبه الضب والسرحان ومشت إليه الأشجار بالأغصان[٣] » .

(٤) الصلاة المقرونة بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى لنيل مرغوب فيه أو دفع مكروه من المكروهات ومن ذلك قوله : « اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تكشف بها الران عن قلوبنا وتيسر بها أمورنا ، وتستر بها عيوبنا ، وتغفر بها ذنوبنا ، وتقضي بها ديوننا ، وتزكي بها نفوسنا ، وتنور بها أبصارنا وقلوبنا ، وعلى آله وسلم[٤] » .

(٥) الصلاة المبدوءة بأسماء الله الحسنى والابتهال إليه سبحانه في قبول الصلاة على النبي - ﷺ - ومن ذلك قوله : « اللهم يا محسن يا منعم يا حنان يا منان يا رحيم يا رحمن يا كريم يا رءوف يا عطوف يا عفو يا متجاوز يا معطي

---

(١) الصلوات الجعفرية المسماة بالكواكب الدرية في الصلاة على خير البرية ص ١٦ ، ١٧ مطبعة السعادة .

(٢) المرجع نفسه ص ٨١

(٣) « « ص ٧٠

(٤) « « ص ٦٧

أسألك اللهم بكل أسمائك الحسنى وصفاتك العليا واسمك العظيم الكريم الأكرم أن تصلى على سيدنا محمد عبدك الكامل الذى هو أكمل عبيدك فى هذا العالم من بنى آدم الذى أرسلته رحمة العالمين[1] .

ولا يخفى علينا ما فى هذه الصلوات من ميل إلى السجع ولكنه السجع الجارى على الفطرة والطبع ، ولعل ميل الصلوات هنا إلى السجع راجع لكونها من أوراد مريديه التى يرددونها ويقرأونها فرادى وجماعات والسجع يساعد على توافق الصوت ، هذا إلى جانب حب الشيخ السير على منوال الأولين من رجال التصوف الإسلامى فالإمام الجعفرى ليس بدعاً فى هذا الفن فالناظر فى التراث الإسلامى يرى مثلا الشيخ الدردير الشهير بأبى البركات رحمه الله تعالى ، قد سبق الإمام الجعفرى فى مثل هذا ، إذ له صلوات على النبى — صلوات الله وسلامه عليه تسير حسب ترتيب حروف الهجاء كما تسير صلوات الإمام الجعفرى على هذا المنوال مما يدل على أن الإمام الجعفرى نسج على منوال هذه الصلوات .

وهذا نموذج من صلوات أبى البركات الدردير — رحمه الله — : « اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد طيب الأنفاس وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وابسط لنا الرزق واغننا عن الناس وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد طهرنا من الأدناس وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين أزال عنهم الالتباس[2] » .

وغنى عن البيان أن الصلوات عند الإمامين نوع من الأدعية الدينية التى تنتمى إلى تيار الأدب الصوفى الذى يتسم بالرقة والبساطة المعبرتين

---

(١) الصلوات الجعفرية ص ٩٣

(٢) مجموع الاوراد الكبير ص ٤٤ طبع شركة الدمرلى .

عن الشفافية وتدفق الشعور كما أن الصلوات عند الشيخين صورة واضحة لنفس مشرقة بنور الإيمان ووضاءة التقوى وتعبير عن الرغبة الصادقة فى تنقية الروح من دنس الشهوات فوق ما تدل عليه من الحب الكامل لرسول الله - ﷺ - والذى هو من أعلى علامات الايمان لأنه فى حب الله ، فالصلاة والسلام عليه - ﷺ - وسيلة للقرب من المولى جل جلاله وامتثال لأمره سبحانه[1] الذى أمرنا به فى قوله الحكيم « إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما[2] » .

وهكذا كان اتحاد الغاية والهدف عند الشيخين عاملا من العوامل التى أدت إلى وجود بعض التشابه فى أدعيتهما وصلواتهما لأن الشيخين إمامان شريعة وحقيقة وغاية كل منهما الهداية والارشاد .

أما الحكم الجعفرية المبثوثة فى ثنايا كتب الامام الجعفرى فنها :

١ - لا تجعل حجاب نفسك ساتراً لك عن طهر قدسك ، ولا تقوينه بكثرة طعامك وشرابك .

٢ - لا تحير روحك بين زائلين : جسدك وأملك .

٣ - لا وصول إلى غيب مع ارتكاب الذنب والعيب ، فمن دفع المهور سيقت إليه الأجور .

---

(١) أنظر : مقال الدكتور / أحمد منصور نفادى فى مجلة كلية اللغة العربية ص ١٠٥ العدد الاول سنة ١٩٨٢ مقال بعنوان « الإمام الجليل الشيخ أبو البركات الدردير ومأثوراته الادبية .

(٢) سورة الاحزاب آية ٥٦

٤ - أفق من غفلتك إلى يقظتك ، ومن رقدتك إلى جنتك فقد آن أوان رحيلك ، فما أنت إلا غريب طيار ما لك فى هذه الدنيا من قرار[1].

وهنا تبدو الروح الصوفية الملهمة التى توجه وترشد وتحذر من الدنيا وفتنتها وتوصى بعدم الركون إليها وتدعو إلى التفكير فيما سيصير إليه المرء لأن الإنسان فى هذه الحياة غريب طيار ما له فى هذه الدنيا قرار ، ونلمح فى هذه الصور القيم الفنية التصويرية فهى من جوامع الكلم وأبلغ القول وأصدق الحكم .

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الامام الجعفرى كتب قصة المولد النبوى الشريف تحت عنوان « السيرة النبوية المسماة بالأقمار النورانية » حاكى بها الذائع من المولد النبويه على نحو ما كتب البرعى والمناوى والأستاذ عبد الله عفيفى صاحب « المولد النبوى المختار » . وهذا نموذج مما حاكى به الشيخ الجعفرى هؤلاء الأفذاذ : « وأما أخلاقه - ﷺ - فكان أكمل الناس أخلاقاً ذا صدر رحب ونفس سنية ، يعفو عمن ظلمه ، ويصل من قطعه ، ويعمم بره وعطاياه ، ويدرأ بالحسنة السيئة ويصبر على الأذية ، ولا يقابل السيئة بالسيئة بل بخيره ونداه ولما أدمى ساقيه الشريفتين أهل الطائف بالإصابات الحجرية استأذنته - ﷺ - الملائكة بإهلاكهم فقال أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله .

وقد أثنى الله - تعالى - على خلقه - ﷺ - بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم »

---

(١) المعانى الرقيقة على الدرر الدقيقة المستخرجة من بحر الحقيقة للشيخ صالح الجعفرى ص ٢

فيا أعظم هذا الثناء وما أعلاه[٢] .

رحم الله الإمام الجعفرى وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء جزاء ما قدم للعلم والعلماء والأزهر الشريف طوال مدة حياته التى قضاها بين الذكر والعلم والتوجيه والإرشاد إلى أن انتقل إلى جوار ربه فى مساء يوم الإثنين الثامن عشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة بعد الألف للهجرة الموافق السابع عشر من أبريل سنة تسع وسبعين وتسعمائة بعد الألف من التاريخ الميلادى .

دكتور / محمود عبد الرحيم محمد فراج
مدرس الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(٢) الجوهرة النبوية المحمدية المسماة بالاقمار النورانية ص ٥٤ ، ٥٥ للشيخ صالح الجعفرى ط. ٢ سنة ١٠٧٨ م